صلاح الدين

ابتداء أمره قبل ملكه

مر بنا القول على الدولة العباسية ، وكيف قامت فى أول أمرها ، وساست دولتها ، أيام كانت بغداد مركزاً يرجع إليه كل أطراف الدولة ، وما زالت تصدر أمرها إلى ولاتها ، حتى ضعف حالها ، وكثرت الموالى فيها فاشرأبت أعناق العمال إلى الاستقلال بما في أيديهم ، حتى وصل الموالى الأتراك إلى القوة والسلطان ، ثم غالبهم الديلم فغلبوهم ، فانتقلت السلطة لأيديهم ، بيد أن الخلفاء فى بغداد لم يطيقوا لهم حكما ، لغلوهم في التشيع ، وانتظارهم الفرص لأعطاء الدولة إلى العلويين ، حتى دعا هذا الحال إلى ظهور السلاجقة ، فكونوا قوة إسلامية أفادت إلى وقت ما الدولة العباسية والعالم الأسلامى بأسره ، بما قضوا به على تلك الأمارات التى قامت من تخوم أفغانستان شرقاً حتى البحر الأبيض المتوسط غرباً ، فوحدت كلمة تلك الجهات وأخضعتها لسلطان واحد ، هو السلطان ملكشاه السلجوقى ووزيره القادر الحازم ، نظام الملك الذى شاد حقيقة عظمة البيت السلجوقى بما كان له من بعد النظر فى الأمور والمقدرة السياسية . رأى هذا الوزير القدير أن دولة قامت بقوة السيف على أيدى جنود من المرتزقة والأرقاء ، يقودهم ضباط من المماليك الموالى العاملين في بلاط السلطان ، بعد أن بعدت أيدى العرب والفرس عن العمل فى أمور الدولة ، لا يكون قوامها

بعد تأسيسها إلا العدل والمراقبة من جهة ، وتشجيع القواد على الأعمال في الدولة ولصالحها من جهة أخرى ، فقام يدلى لهؤلاء القواد بالقلاع والمدن ، وحتى بالولايات ، جزاءً لمن قام منهم بعمل مشكور عظيم ، فكان يستولى القائد على قلعة أو ولاية ، يحكم فيها بما يرى على قاعدة أن يؤدي الخدمة العسكرية التى كان يطلبها منه البيت السلطانى في أى وقت شاء فساق هذا الأمر الدولة إلى النظام الأقطاعى الذي كانت سياسة نظام الملك نفسه تخشى الوقوع فيه ، بما أثر عنه بأنه ما كان ليبقى أميراً فى إمارته مدة طويلة ، وما كان يسمح لأحد منهم بجباية أمواله فى غير وقت الجباية ، وبما كان يرسل من المفتشين والعيون على هؤلاء العمال ، وبما كان يقول لهم عند توليته إياهم إن الأرض ومن عليها ملك للسلطان ، وليس الولاة والحكام إلا حراسا عليها وعليهم . غير أنه يظهر أن هذا النظام الأقطاعى كان له أثر فى نفوس الأتراك وميل خاص إليه ، حتى تسرب إلى نفس صلاح الدين وخلفائه من بعده ، فحافظ عليه المماليك الأتراك عدة قرون . على هذا النظام الأقطاعي العسكرى سارت معظم جهات فارس والجزيرة وسوريا ، فحكمها قواد من قواد السلاجقة ، أولئك القواد الذين كانوا من قَبْل موالى فى الحاشية السلجوقية . وتبعاً لهذا النظام كان القواد أنفسهم يولون من قِبلهم ولاة يؤدون لهم الخراج ويقومون بخدمات عسكرية وقت الحاجة ؛ فساد النظام الأقطاعي بمثل ما كان يسود في أوروبا . هذا النظام حسن فى مملكة واسعة الأرجاء ، مترامية ، الأطراف ، قليلة المواصلات ، ما دام للسلطان فيها القوة والجبروت ، وللأمراء والولاة

الخضوع والطاعة ، فاذا ما زلّت قدم السلطان وقصرت يده عن تحريك سلطنته على ما يرى ، انقلب هذا النظام إلى سيل جارف يهدم من الأمة ما شيدته ويسقط منها ما قد أقامته أيام قوتها وسطوتها ، فيقوم التنافس بين الحكام، والمنازعات بين الأتباع ، كلٌ يحاول أن يغير على ما بيد أخيه ، فيختل النظام ، ويضيع الأمن ، وتنحط التجارة ، وتزهق الأرواح ، وتتدهور الأمة بأجمعها إلى الحضيض

على أنه فى وسط هذا الهرج والمرج ، قد تظهر يد قوية في إحدى الجهات فيكون لها الغلبة على من سواها ، ويصبح لها من القوة والنفوذ ما يمكنها من حفظ قسم كبير من المملكة من السقوط فى الهاوية العميقة ويرد عن الأمة خطر الاضمحلال والفناء ؛ غير أن هذا الحال ليس إلا حادثاً وقتياً يزول بزوال اليد التى كونته ، أو ينتقل إلى يد أخرى تأخذ بناصره ؛ وهكذا حتى تقل الأيدى ، ويفنى الأكفاء ، فتتنفس الأمة آخر نفسها

كان هذا النظام يدعو الأمراء والحكام إلى أن يضموا إليهم جماعة من ذوى القدرة والمواهب السامية ، ممن يرون فيهم إخلاصاً وعقلا وأدباً ومهارة وحنكة وسياسة ، ليكونوا لهم أعواناً على إقامة دولتهم ، وعيوناً على أتباعهم ، وسيفاً فى نحر أعدائهم ، ودرعاً يتقون بها مخالفيهم ؛ ومن هذا ما كان من أمر نور الدين ، فانه قد جمع حوله نفراً ممن إختلفت مواهبهم، منهم من أعطي بسطة فى العلم والأدراك ، ومنهم من وهبه الله شجاعة وبسالة ، ومنهم من حنكته الأيام فأصبح داهية سياسية ، انتفع بهم

نور الدين انتفاعاً ظهر أثره فى تملكه كل البلاد الشامية وغيرها

ولاريب فى أن هذا نظام يدعو ذوى المطامع إلى العمل ، ويثير صاحب الهمة إلى الظهور ؛ كما أنه لا خوف من الاعتراف بأن هذا النظام وحده هو الذى ساعد كثيراً على ظهور الروح التى ظهر بها صلاح الدين ؛ ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أوجه نظر القارئ إلى تأثير البيئة ، ذلك الذى لم يدع فيه وفى تأثيره الفلاسفة والكتاب الاجتماعيون قولا لقائل

قدمنا أن صلاح الدين كان جليس نور الدين ، وأن هذا ما زال يقربه ويدنيه ويقدمه ، حتى بدت له مواهبه وبسالته ، وظهرت فتنة الوزارة بمصر ، وهى إذ ذاك مقر الخلافة العلوية دون أن يكون للخلفاء فيها كلمة ولا حول ولا قوة ، القول قول الوزراء والأمر بيدهم ، يديرون الملك كيف شاؤا ؛ وكان المصريون فى إبان هذا لا حيلة لهم إلا إقرار الوزراء فى مراكزهم ، يعترفون للغالب ، ويوقعون للقاهر ، لعلمهم ألا قوة لهم إلا بقوة الوزير وجنده وأتباعه والموالين له . ذلك لأن الخلفاء الفاطميين تركوا عيشتهم الساذجة أيام أن كانوا فى إفريقية ، فلما جاؤا إلى مصر ، وابتُنيت لهم فيها القصور الفخمة ، وأقيمت لهم الحدائق الغناء ، وكثرت لديهم الثروة ، وانفتح لهم باب النعيم بما لم يكن لهم فى الحسبان ، انغمسوا فى الملذات والملاهي ، ومالت نفوسهم إلى الكسل والتوانى ، واكتفوا بما هم فيه من التفنن في الطعام والشراب ، وتركوا حكم البلاد ومهام أمور الحكومة إلى خدمهم ومواليهم الذين كانوا يقبضون على أزمة الأمور رويدا رويدا ، حتى انتهى الحال إليهم ، وأصبحت القوة والسلطان فى أيديهم ،

والخلفاء مغلوبون على أمرهم ، لايستطيعون رداً لقضاء وقع فيه أسلافهم فاذا مات الخليفة قام وزيره باختيار من يراه، لا من يريده قوم الخليفة ، وليس أدل على هذا من قول الصالح بن رزيك ، وزير الفائز بنصر الله عند استخلافه العاضد ، وقد سمع ضجة من الخارج قيل له عنها إن الناس يفرحون بالخليفة فقال « كأنى بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ، مامات الأول حتى استُخلف هذا، وماعاموا أننى كنت منذ ساعة أستعرضهم استعراض الغنم » استمر حال الخلفاء على الضعف حتى سمى الوزراء أنفسهم بالسلاطين ،واكتفى الخليفة بالانكماش بين جواريه ، يُخطب باسمه على المنابر ، وتقر العامة له بالزعامة الدينية عليهم باعتباره إمامهم ، وأصبح حال الخليفة في مصر ، وهو على عرشه المزركش بانواع الحلى والجواهر ، كحال أخيه الخليفة العباسى فى بغداد ؛ وكانت حال الدولة إذ ذاك يؤسف لها ، فقد وصلت من الضعف إلى حيث كان يسهل على أى مغير فتح البلاد من غير عناء . على أن الفضل في بقائها على هذا الحال من غير غزو ، وجود جيران لها ضعفاء منهمكين في أمورهم الداخلية ، غير ملتفتين إلى ما يجرى بالديار المصرية ، فان السلاجقة فى هذا الأوان كانوا قد انقسموا شيعاً ، فلم يعودوا قادرين على غزوها مع أنهم لو بقى حالهم على ما كانوا عليه أيام السلطان ملكشاه لاستولوا عليها بلا عناء ولا مشقة ؛ وما كان لحكومة أن تفكر فى غزو مصر إذ ذاك (فى أواسط القرن الثانى عشر م) سوى حكومة القدس اللاتينية ؛ غير أنه من حسن حظ مصر أن هؤلاء الأفرنج ما كادوا ينظمون حال مملكة القدس حتى ظهر فشلهم . إذ جرهم الطمع الشخصى

إلى الاختلاف فى الكلمة ، ودب فيهم دبيب الفساد ، فكان حبهم للمال يفوق حبهم لأى شى آخر ؛ وهنا رأى الوزراء المصريون أن الفرصة ملائمة فانتهزوها ، فسدوا أفواه هؤلاء الأفرنج بالذهب وهو كل ما كانوا يطمعون فيه من مصر . أضف إلى هذا أن ظهور نور الدين في جو السياسة الشامية ، واستيلاءه على دمشق ، وانتصاره على طرابلس وانطاكية اللاتينيتين ، حول أنظار إفرنج القدس عن مصر ، خشية أن يغير عليهم أيضاً ، فبقيت مصر آمنة من الغزو ، مع أن نور الدين والأفرنج كانوا على السواء يطمعون في امتلاكها ، لعلمهم أن من استولى عليها ، رجحت كفته ، ومن أجل هذا أخذ كل منهما يترقب أعمال صاحبه فيما يعده للاستيلاء عليها

هكذا كان مركز مصر ، والوزراء الفاطميون يعرفون حرج مركزهم ومركز البلاد ، فأخذوا يداهنون القوتين ، ويضربون الواحدة بالأخرى ؛ على أنهم بالغوا في هذا كثيراً حتى مكنوا صلاح الدين منهم ، وأعطوه فرصة لم يهملها ؛ وإليك بيان الحال من أوله

توفى الصالح بن رزيك وزير الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله بعد أن أوصى ولده العادل ألاّ يغير شيئاً مما بيد شاور بن مجير أبى شجاع السعدى — كما ينسبه صاحب كتاب الروضتين — الذى كان والياً من قبله على أعمال الصعيد

قدم شاور إلى مصر والتحق بخدمة الصالح ، فرأى منه نشاطاً وقوة ، فولاه الصعيد ، وهو إذ ذاك أكبر أعمال مصر ؛ فلما استقر بشاور المقام ،

عامل الناس عامة والأعراب خاصة معاملة جعلتهم تحت أقدامه وطوع يمينه ، فقوى بهم مركزه ، وتاقت نفسه إلى ما فوق مكانه ، فخافه الصالح وعسر عليه عزله خشية أن يخرج عليه بجماعته فيحرمه منصبه ، منصب الوزارة ، بل منصب السلطان والنفوذ فى الدولة كلها ، فاستبقاه يعمل ما يرى

فلما توفى الصالح وخلفه العادل بوصية من أبيه ، خالف نصح والده بأغراء أهل مجلسه وإفهامهم إياه أنه إن ترك شاورا في مكانه خرج عليه ، فأرسل بعزله ، فجمع شاور الجموع ونزل بها إلى القاهرة وقبض على العادل وقتله ونهب أموال بنى رزيك كلها بعد أن أشبعهم قتلا ، وتولى الوزارة ولقبه العاضد بأمير الجيوش ؛ ويقول فيه عمارة الشاعر من قصيدة

ضجر الحديد من الحديد وشاور فى نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

والمتتبع لما قيل فى هذه المدة من مدح شاور قد يُخدع بما قاله الشعراء الذين اعتمد عليهم بعض المؤرخين فى نقل حوادث هذا الزمان ، وهو أمر يستدعي دهشة الباحث فى التاريخ ؛ ورب قائل ، كذلك وصلت إلينا أخبار العرب الأولين واليونان ، فأقول إن العرب واليونان كانوا على السذاجة الفطرية ، فما كانت تغرهم ألقاب ولا تطمعهم أموال ولا تميلهم نعمة ، كلهم فى الحياة سواء ، لا يفوه الشاعر منهم إلا بما يوحيه إليه وجدانه ويراه حقاً وصواباً

ما كاد سرير الوزارة يطمئن بشاور حتى قام في وجهه نائب (حاجب)

الملك أموري

الباب وهو أمير يقال له الضرغام بن سواد ويلقب بالمنصور ، جمع الجموع الكثيرة وقام ينازع شاوراً ؛ فظهر أمره وعلت كلمته وطال نزاعه حتى اضطر شاور إلى الهرب من الديار المصرية خائفاً يستنجد ؛ فاستولى الضرغام على الوزارة وأخذ يقتل الأمراء وأهل الدولة ليصفو له الجو ويطمئن على نفسه ومركزه . وما درى أنه بعمله هذا قد أساء إلى نفسه ، فقد يكون له ممن قتل خير مساعد وأعظم ناصر . لكن هذه عادة الأمراء والوزراء الذين يصلون إلى مراكزهم بالحيلة والدسيسة لا من طريق الحق والأمانة

لم تكن حال الضعف التي وصلت إليها مصر في هذا الوقت إلا نتيجة أطماع هؤلاء الوزراء الذين ما كان يهمهم من مصر وأمرها إلا امتلاء بطونهم وتثبيت مراكزهم وتقوية أنفسهم وإحاطتها بسياج من المكر والخديعة مهما كانت الأساليب والطرق التي وصلت بهم إلى هذه الغاية قبيحة أو حسنة ، وسواء عليهم أعمرت البلاد بعد ذلك أم خربت ، لأنهم ليسوا من أبنائها ولا من الذين يهمهم فلاحها ونجاحها ، بل هم على العكس من ذلك ، يقومون بقتل الظاهرين في الأمة حتى لا يكون فيها من يناظرهم في العظمة ولا من يناقشهم الحساب على تصرفاتهم السيئة

قام الضرغام يناوئ شاوراً لا للاهتمام بأمر مصر بل لمجرد طمعه في سرير شاور ، فاستعمل كل ما يمكنه من هذا الغرض ، فحالف الملك أموري أو أملريك ، ملك القدس ، الذي كان إذ ذاك يعد العدة لغزو مصر ، فصادفت هذه المحالفة هوى في فؤاد الأفرنج وسبحوا في بحار أحلامهم للقضاء على

استقلال مصر والاستيلاء عليها ، بعد أن نالهم ما نالهم من الفشل فى الشام على يد نور الدين

طار شاور إلى الشام وتقدم إلى نور الدين يستجير ويستغيث، ووعد بدفع ثلث خراج مصر بعد وظائف الجنود الذين يبعث بهم نور الدين إلى مصر لتنفيذ رغائب شاور وأغراضه ، وأن يجعل حامية فى الديار المصرية من الجنود الشامية تحت إمرة شيركوه الذى يمثل نور الدين فيها ؛ على أن نور الدين ، مع علمه بأن في امتلاك مصر ظفرا بالسيادة السياسية ، وأن فيها من المدد له ما فيها ، تردد في الأمر وأخذ يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، لا لضعف فى عزيمته ولا لنقص في جنده ، بل لأن أمورى كان شديد العداوة له وأن مملكته تفصل بين أملاك نور الدين ومصر ، والمسلك وعر والطريق صعب والمرحلة شاقة والثقة بشاور ضعيفة ، نخاف على جنده وأتباعه فى أول أمره ، إلا أن شيركوه ، قائد قواده ، ما زال به حتى أمّن خوفه ، ذلك لأن شيركوه رأى أن أهل مصر لا يفضّلون أميراً إفرنجياً على سلطان مسلم من جهة ، ومن جهة أخرى ليس فيها سلطان قوى يصح أن يقال عنه إنه منافس جدى ، وكل من فيها وزير قد تقوم عليه جنده لسبب ما . بيد أن الظروف كانت تعمل أكثر مما كان يفكر فيه القوم ، فأن أملريك كان قد تقدم لغزو مصر بسبب تأخر الضرغام عن مناولته الأتاوة السنوية ، فلما جاءها قطع الضرغام الجسور ، وكان النيل مرتفعاً ، فأغرق البلاد من تلك الناحية ناحية بلبيس ، فرجع أملريك ؛ فلما سمع الضرغام بفرار شاور إلى نور الدين ندم على ما فرّط فيه من صداقة

الافرنج وعاد إلى مخاطبتهم على أن يعودوا ، فوصل هـذا الخبر إلى نور الدين ، فترك تردده وأسرع فى إرسال جنده حتى لا يصل الأفرنج قبله

وفوق هذا فقـد بيّن شيركوه لنور الدين ما لامتلاك مصر من الفوائد في حرب الأفرنج فى الشام ، فأنه من دلتا مصر يمكنهم أن يرسلوا جيشاً يحارب السواحل الشامية ويناوئ النجدات الأوروبية ، وبامتلاك مصر تصبح القدس بين نارين ، نار من الشام ونار من مصر نفسها ؛ غير أنه لا بد لنا من ملاحظة شيء هام في إلحاح شيركوه على نور الدين ، إذ كان يطمع فى امتلاك مصر ليكون مستقلا بها ولو بعض الاستقلال ، لأنه لم يكن في مركزه الحالى إلا عاملا من عمال نور الدين ، أما إذا امتلك مصر فأنه سيكون ممثله فيها ، فهو مستقل عنه نوعاما . على أى حال من الأحوال وعلى أى غرض أقام دفاعه ، فلقد كان شيركوه الشخص الوحيـد الذى وحد قوات مصر والشام وأسس أسرة تحكم الديار المصرية

ما زال شيركوه يسهل الأمر على نور الدين ويحسن له فتح مصر حتى رضى بتجريد حملة إليها ، وهنا وطد شيركوه العزم وشد الرحال وجهز الجيش وأخذ معه شاورا وابن أخيه صلاح الدين ، وقام نور الدين بنفسه لوداعهم ، ثم بدأ يغزو حدود مملكة القدس حتى لا يتنبه الأفرنج إلى حملته وهى تسير نحو مصر بجوار حدود مملكتهم ؛ وبهذا وصـل شيركوه ونازل الضرغام

انهزمت الجيوش المصرية عند بلبيس فتقهقرت إلى جدران القاهرة وتحصنت فيها ، فاحتل الاكراد الفسطاط ، والضرغام وجنوده داخل

القاهرة . احتاج الضرغام إلى مال فانقض على أموال الأوقاف وأخذها ، فلم تلبث الناس أن انفضوا من حوله ، وصادف أن بعُد عنه الخليفة ، وكذلك الجند ، وتركه من كان حوله إلا قليل من حرسه ؛ وبعد يوم واحد فاجأه الخبر بدخول شاور المدينة ، فركب الضرغام ، وطاف الشوارع من باب زويلة ينادي على من نصروه أولا ، فما كان جوابهم له إلا السب والشتم ، وما زال يسير حتى جمح به جواده أثناء سيره وسط الزحام ، فالقى به قريباً من جامع السيدة نفيسة ، فقطع القوم رأسه ، وحملوه إلى الخليفة ؛ وبذلك تمكن شاور من الوزارة

جلس شاور على سرير الوزارة المصرية ، واحتال حتى جعل شيركوه وجنده خارج القاهرة ، ثم امتنع عن تنفيذ ما تعهد به ، لأنه رأى أن استقلاله مهدد ما دام شيركوه وجيشه فى جواره . بيد أن ما اندفع فى تقديمه من الوعود بلا أناة ولا تروٍ فى دمشق قد سجل عليه ، فأرسل شيركوه ، ذلك الرجل العنيد ، ولد أخيه صلاح الدين لاحتلال بلبيس والشرقية ، فكان هذا سبباً فى أن يولى شاور وجهه نحو أملريك كما فعل سلفه الضرغام . قام أملريك الذى كان يرى الخطر محدقاً به إذا امتلك نور الدين مصر ، وأرسل نجدة قوية إلى شاور ، وهي النجدة التى كان يريد إرسالها للضرغام ؛ وبهذا أصبح العدو صديقاً ، والصديق عدواً ؛ وما الحياة والناس إلا هذا ، أصدقاء لمن وجدوا فيه المنفعة ، وأعداء لمن انتهى غرضهم منه ؛ لا أخلاق ولا شعور ولا ضمير ؛ ليست إلا المصالح الشخصية ، والأغراض النفسية ، فى هذه الحياة المرة المتلونة بتلون أهلها ؛ لا صفاء

ولا وفاء ؛ لا دين ولا عهد ولا ميثاق ؛ هكذا أفسدت المطامع أخلاق الأفراد ، فانجر الفساد إلى الأمم

وصلت نجدة الأفرنج إلى مصر ، وتحصنت الجنود النورية في بلبيس ، وظل النزال بين الفريقين نحواً من ثلاثة أشهر ، قام فى آخرها نور الدين بمنازلة الأفرنج في بلادهم بفلسطين والشام ، فاستولى على حارم وحاصر قلعة بنياس ، فكان من واجب أملر بك العودة لخلاص ملكه ، وتاق شيركوه إلى الخلاص من موقفه الذي صار حرجاً إلى النهاية ، فقد قلّت الذخيرة عنده ، ومل طول الحصار ؛ فاتفق الفريقان على الصلح بأن يتخلى كل منهما عن أرض مصر . قال ابن الأثير يصف خروجهم « حدثنى من رأي أسد الدين شيركوه حين خرج من بلبيس ، قال ، أخرج أصحابه بين يديه ، وبقى فى آخرهم ، وبيده لب من حديد يحمي ساقتهم ، والمسلمون والأفرنج ينظرون إليه ، قال ، فأتاه إفرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر ، فقال له ، أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والأفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك فلا تبقى لكم بقية ؟ فقال شيركوه ، ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله ؛ كنتُ والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى شجعانهم ، فنملك بلادهم ونهلك من بقى ، والله لو أطاعنى هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا »

ترك الفريقان جميعاً البلاد ، فأمكن الأفرنج للشاميين فى الطريق ، وعلم بذلك شيركوه فتحول عنهم ، وفى ذلك يقول عمارة الشاعر

أخذتم على الأفرنج كل ثنية وقلتم لأبدى الخيل مري على مرى
لئن نصبوا فى البر جسرا فأنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر

انتهت الحملة على مصر من غير نجاح فى رأى بعض الحربيين ، على أنها فى نظر الحربى المطلع قد تكون غاية فى النجاح والفلاح ، لأنها مكنت شيركوه من معرفه البلاد وطرقها وأهليها وإمكان غزوها ومقدار نفعها لنور الدين إذا ما اتصلت بملكه ، فلقد قال عنها لنور الدين إنها من غير رجال ، وإن حكومتها على الدوام قلقة غير ثابتة ، وإنها ضعيفة واهنة ، وإن ثروتها وخصب تربتها مما يطمع فيها

قام شاور بعد هذا وتقرب من الأفرنج ، فبعثوا له تجريدة أقامت في الأراضى المصرية . وألح شيركوه على نور الدين فى غزو مصر مرة أخرى وأقر هذا الغزو الخليفة العباسى في بغداد . وإلى هذا يشير صاحب كتاب القدس بقوله ما ترجمته « فأرسلا — أى نور الدين وشيركوه — لخليفة بغداد بما يعود على الأمة الأسلامية من محو الخلافة الفاطمية ، وتوحيد المسلمين تحت الخلافة العباسية ، وما يحصلون عليه من استيلائهم على مصر تلك البلدة الغنية التى انغمس أهلها فى الملذات وأنواع النعيم حتى صاروا على ضعف لا يمكنهم من أن يبدوا مقاومة ما ، قبل الخليفة هذا دون أن يهتم بأضافة بلدة غنية إليه ، إنما كان جل همه أن يعيد الوحدة الأسلامية إلى حالها مرة ثانية »

ومهما يكن فقد تجمعت هذه الأسباب عند نور الدين ، فأعد الحملة . وبدأ شيركوه المسير بألفى رجل من خيرة رجال نور الدين .

متخذاً الصحراء عن طريق وادى الغزلان حتى لا يلتقى بالأفرنج ،فأصابته ريح شديدة أثارت عليه رمال الصحراء ، ولكنها لم تعقه عن سيره كثيراً فوصل إلى إطفيح التى لا تبعد عن القاهرة جنوباً إلا بنحو أربعين ميلا ، وسار منها حتى وصل الجيزة وعسكر فيها ، وقام على الشاطىء الايسر جند الملك أمورى ، ولم يشأ أن يشتبك فى حرب مع عسكر الشام حتى تُمضى المعاهدة بينه وبين الخليفة الفاطمي نفسه ، وهي التى تقضى بأن تدفع مصر خراجاً سنوياً للقدس ،وتكون بذلك تحت حمايتها ؛ فلما انتهي التوقيع عليها ، قام أملريك ليلا ، وعبر النيل على مراكب أعدها لذلك دون أن يعلم بأمرها شيركوه ، الذى عند ما تنبه إلى حركة الأفرنج أسرع بجيشه نحو الصعيد ، فتبعه أملريك ، وسار الجيشان حتى وصلا إلى مكان يعرف بالبابين ، وفيه قامت معركة كبيرة انتصر فيها شيركوه انتصاراً عظيما بحسن ما قام به هو وصلاح الدين ، فأن هذا أخذ على عاتقه قيادة القلب واتبع في عمله خطة التقهقر ، فتبعته الجيوش المتحدة ، فانقض عليهم شيركوه ورجع عليهم صلاح الدين ، فانكسروا شر انكسار ؛ ويقول الأمير علي فى كتابه عن هذه الموقعة « قد ثبت شيركوه لاعدائه وانتصر عليهم انتصاراً تاماً قال فى وصفه المؤرخ الفرنساوي ميشود إن هذا الانتصار دل على مهارة حربية فائقة »

ورغماً من هذا النصر فأن شيركوه لم يرغب فى اقتفاء أثر أعدائه ؛ فلم يتبعهم إلى القاهرة ، بل تخطاها وذهب رأساً إلى الأسكندرية ،وأقام فيها ابن أخيه صلاح الدين حاكما عليها ؛ وهذه أول مرة كان فيها صلاح الدين

أميراً ، وعاد شيركوه بنصف قوته إلى الصعيد

اتفق رأى الأفرنج والمصريين على محاصرة صلاح الدين ، بعد أن علموا أن أسطولا صليبياً وصلها ؛ فقام صلاح الدين بالدفاع عن المدينة ، وأظهر فى خلال دفاعه من المهارة ما بهر العقول ، واجتذب قلوب السكان نحوه ، بما رأوا فيه من الشجاعة والأقدام والصبر فى منازلة المحاصرين ، وأرسل فى الوقت نفسه إلى عمه يستنجده ، وكان إذ ذاك فى قوص ؛ استمر يدافع عن المدينة ، ويقاوم العدو ، حوالى سبعين يوماً ، ولم يتزحزح الأفرنج عن حصار المدينة إلا بعد أن علموا أن شيركوه يحاصر القاهرة من بركة الحبشة ؛ وبهذا اتفق الفريقان على الصلح والانسحاب من مصر وتركها ، وعدم التداخل فى أمرها ، على أن بعض الروايات تشير إلى وجود شرط من شروط الصلح يقضى بأن يبقى أملريك شحنة له بمصر ليرجع إليها أمر المقيمين فيها من الافرنج ، وأن يأخذ منها ضريبة سنوية ؛ غير ان المطلع على السبب الذى دعا أملريك للصلح لا يصدق هذه الرواية ، لأن أملريك ما رغب فى هذا الصلح إلا بعد أن علم أن نور الدين يُنزل ببلاده النزلات القاسية ويستولى عليها بلدة بعد أخرى

ويقول استانلى لين پول إن صلاح الدين ، قبل مغادرته مصر ، مكث عدة أيام في معسكر أملريك ، تحفه الجلالة ويحوطه الأكرام ؛ وقد يتبادر إلى الذهن أنه كان وديعة لا ضيفاً

وعلى أى حال فلا بد أن يكون صلاح الدين قد انتفع من وجوده هناك ، حيث تمكن من الاطلاع على نظام الجند لدى الأفرنج

غادر الجيشان مصر وفى نفس كل منهما مطمع خاص ، وأصبحت البلاد طعمة لمن غلب منهما

سار أملريك وفي جنبه روح تتوق إلى مصر وسلطانها ، فلا يبيت إلا على ذكر عرش مصر ، بعد أن أخبره مندبوه بما رأوا من آيات العظمة والجلال فى قصر الخليفة عند ما وقع لهم على محالفتهم ؛ وصفوا له ما بهره وعظم أمر مصر فى عينه ، لا من جهة المركز السياسى فحسب ، بل من جهة ثروتها وغناها وعظمتهما ، غير أن وجوده فى مصر مكنه من أن يدرك الفرق بين غنى مصر وفقر فلسطين ، وأن يميز بين خصب الأولى وجدب الثانية « ومع أنه لم يكن يهتم بأمر الكنيسة كثيراً ، وهي التى كان يحميها — كما يقول صاحب كتاب القدس — فأنه كثيراً ما كان يقارن القدس بمكة ، ويقول : حينما كانت مكة هى المكان المقدس للمسلمين ، كانت بغداد ومصر هما المركز السياسى لها ، فلم لا تكون مصر للقدس كبغداد لمكة ؟ ولم لا يجلس خليفة المسيح فى ذلك القصر الفخم . وراء ستائره المزركشة بالذهب ، ويلبس تلك الحلل الأرجوانية من سندس وحرير ، تحرسه غلمانه ، وتحف به حاشيته ، فى حياة ملؤها الهدو والسكينة ؟ ولم لا يستظل بظل أشجار هذه الحدائق الغناء ، ويتمتع نفسه بتلك الروائح الذكية المتصاعدة من أزهارها ورياحينها ، ويتحف حياته بنعم السماء التى ينعم بها المسلمون في هذا البلد الأمين ؟ » أى كما هو حال خليفة المسلمين فى بغداد

هـذا الطمع غير من مصر تغييراً فجائياً ، ذلك أن أملريك لم يرض البقاء حليفاً على حسب ما نصت عليه تلك المعاهدة ، بل سرعان ما كاتب

أمبراطور الأغريق فى أن يساعده على غزوها ، وجره طمعه إلى عدم انتظار المدد الأغريقى ، فقام بجيش زحف به على مصر ، وواصل سيره حتى احتل بلبيس ، ولم يكتف بأن نكث عهده مع المصريين ، بل فتك بالسكان فتكا ذريعاً لا يقل فى بشاعته وشناعته عما كان يأتيه الصليبيون الأولون فى أرض سوريا ؛ وإليك ما قاله صاحب كتاب القدس « وعلى هذا سار فتيان القدس وما حولها من المدن واستولوا على (بلبيس) بمدمسيرة عشرة أيام في الصحراء ، فى طريق قد عرفوه من قبل ؛ ولم يقاوم أهل بلبيس إلا مقاومة ضعيفة مكثت ثلاثة أيام ، استولى الأفرنج بعدها عليها ، وذبحوا كل طفل وامرأة ورجل وقع فى قبضتهم »

رأى شاور هذا الحال فأدرك الخطر اللاحق به ، وأخذ يكاتب أملريك يسائله في سبب حملته هذه ، فادعى أن ما يدفع إليه من المال قليل ، فطلب شاور منه الانتظار ريثما يجمع له ما يطلب ، وأمر فى الحال بأحراق الفسطاط حتي لا يحتلها الأفرنج ، وأخذ يماطله ، وكاتب نور الدين في الوقت ذاته . وقد اختلف المؤرخون فيمن كاتب نور الدين ، أهو شاور أم الخليفة ؛ والظاهر أن الخليفة هو الذى قام بالمكاتبة هذه المرة ، لأن حالته كانت سيئة لا سيما إذا قدرنا ما تحمله من حلف اليمين بنفسه ويده عارية لمندوبى أملريك فى المحالفة السابقة الذكر فأنه اضطر إلى ذلك اضطراراً شديداً ؛ كاتب الخليفةُ نورَ الدين وأرسل مع الكتب شيئاً من شعور نساء القصر دليلا على شدة الحاجة ، وقال له فى كتابه ـ كما يقول ابن الأثير ـ « هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الأفرنج » وإرسال

الشعر من المرأة المسلمة من أكبر علامات التوسل والتضرع ، وأقوى الأدلة على ما هى فيه من كرب وبلاء

ومهما يكن من شئ فقد أخذ الخوف من شاور كل مأخذ ، فلم يجد فى رجاله من يصد هذا التيار الجارف ، وملكت مصرَ الدهشةُ والحيرة حتي فقدت صوابها فلم تعرف ماذا تصنع . على أن شاوراً كان يعلم مقدار جشع الملك أمورى وحبه للمال ، فأرسل رسله إليه ليتفق على مال يقدمه ، على شرط أن يوقف زحف جنوده وتقدمهم حتى لا يمتنع الشعب عن دفع ما يطلب منه ، ثم عرض على الملك مبالغ من المال مختلفة كل مرة يزيد فى مقدارها . كل هذا يدور سراً بين الملك وشاور ، وهذا يطيل في المراسلات والأخذ والرد حتى يكسب الوقت ريثما تصله نجدات الشام . ألح الأفرنج على ملكهم في التقدم فأخذ يسير بهم ببطء حتى يحصل على المال الذى اتفق عليه مع شاور الذى كان قد دفع له منه جزءاً ، فلما قارب القاهرة ألح عليه شاور فى ألا يتقدم أكثر من ذلك مخافة أن يكف الناس عن دفع المال ، فوقف الملك على بعد خمسة أميال من القاهرة ، وانتهى الحال به إلى الوقوع فى الفخ الذى نصبه له شاور

استولى الملك على الجزء الأول من كنزه الذهبي الذى ما كان يحلم باقتنائه يوماً ما ملكٌ من ملوك الغرب إذ ذاك ، وظن أنه بهذا الكنز يستطيع أن يجلب الجند من أوروبا للقضاء على قوة المسلمين ، ويستولى على دمشق وغيرها ، ويسترد ما فقده الأفرنج فى آسيا ، ويستولى على مصر نفسها ، فيكون قد ضربها بأموالها فيضع يده على ملكها الواسع من غير

أن ينفق في سبيله درهما واحداً من دراهمه

بيد أن هذا الحلم اللذيذ قد طرده موقظ فظيع ونبهه منبه مرعب ذلك أن نور الدين علم بأمر الحملة على مصر ، ووصلته كتب الخليفة وفيها شعور النساء كما قدمنا ، فرأى الفرصة سانحة للعمل ضد الأفرنج في كل جهة ، فأرسل شيركوه إلى مصر للاستيلاء عليها في الباطن هذه المرة ، ولمساعدة الخليفة الفاطمى في الظاهر

وصل شيركوه إلى مصر ، وقد اصطحب من خيرة الرجال عدداً كبيراً قدره استانلى بألفين من الفرسان ، ومعهم ستة آلاف من المرتزقة من التركمان ، واختار لمعاونته عدداً عظيما من الأمراء ؛ على أنه لم يمتنع من الذهاب ممن اختار من الأمراء سوى صلاح الدين ؛ وعجيب هذا الامتناع مع أنه قد كان اليد اليمنى لشيركوه فى المرتين المتقدمتين ؛ ذلك ما يقوله استانلى ليبرر ما قاله من أنه امتنع عن المجئ ليتمتع بحياة الهدوء والسكينة

وصل شيركوه إلى مصر ، فأزاح شاور الستار عن نواياه ، وقلب للملك أموري ظهر المجن ، فكاد يتميز من الغيظ ، وفك خيامه وأقفل راجعاً تسبقه الخيبة ويلحقه العار ويحف به الفشل من كل جانب ، فلاقى شراً وبيلا جزاء طمعه وجشعه ؛ وفى هذا يقول غليوم الصورى المؤرخ الذى كتب عن الحروب الصليبية ، طبقاً لما ورد في كتاب الفدس « إيه أيها الجشع الأنسانى ، والشره الآدمى ! لقد كانت كنوز مصر كلها تحت أقدامنا ، وكان الأمان والسلامة والهدوء متوفرا لأولئك الذين يفدون علينا من أوروبا عن طريق البحر ، وكان باب التجارة مفتوحاً لأولئك

الذين يرغبون فى ثروة مصر ، وما كان لنا عدو فى جهاتنا الجنوبية ، وكان المصريون على استعداد تام لأحضار بضائعهم وخيرات بلادهم إلى أسواقنا فيصرفون ذهبهم فى بلادنا ، على أن هذا قد ذهب وضاع ، بل تبدل وتغير فحل الحزن والشقاء محل السرور والنعمة ، فأصبح البحر يأبى علينا ملاحة مطمئنة ، وصارت البلاد التى تحيط بنا تطيع عدونا ، وتسلحت كل مملكة لحربنا وتدميرنا ؛ كل هذه النتائج المحزنة السيئة جاءت من وراء جشع رجل واحد وطمع فرد من أفرادنا »

علم أملريك بقدوم شيركوه ، فأراد أن يقطع عليه طريق اتصاله بالمصريين ، ولكنه فشل كل الفشل ، فاستجمع قوته وذهب من حيث أتى ، وكان ذلك في ربيع الثانى سنة ٦٤ هـ (يناير سنة ١١٦٩ م) وكان هذا الحال — كما يقول استيفن سن — نتيجة خاسرة لحملة جنونية

وصل شيركوه وخيم بعسكره هذه المرة أمام القاهرة بعد أن حياه الأهالى وشكروه شكر الغريق لمن نجاه ، والعليل لمن داواه ، والمحتاج لمن أعطاه ، واستقبلة الخليفة بالحفاوة والأكرام ، وشكر له جميلا أداه ، ويقال — كما فى كتاب الروضتين — إن الخليفة قد زار شيركوه فى خيمته متنكراً وأسر له قتل شاور

ذهب شاور لزيارة شيركوه فأفسح له المجلس ، وتقبله قبولا حسناً ؛ بيد أن كلا منهما أضمر السوء لصاحبه ، وصار شاور يذهب كل يوم فى خيله ورجله لزيارة شيركوه ، يدخل عليه خباءه من غير استئذان

أراد شاور أن يقيم وليمة لشيركوه وأتباعه ، ثم يغدر بهم جميعاً ؛

وهي فعلة اعتداها كثير من الأمراء والحكام ؛ على أن ولده الكامل نهاه عن ذلك وقال له « والله لئن عزمت على هـذا الأمر لأعرفن شيركوه ، فقال له أبوه ، والله لئن لم نفعل هذا لنقتل جميعاً ، فقال صدقت ، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الافرنج ، فأنه ليس بينك وبين عدو الأفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور لم يرسل معه فارساً واحداً ، ويملكون البلاد ، ثم قال لأن يكون لنا أمير مسلم خير من أن يكون لنا صديق إفرنجي ، فأن هـذا لا يلبث أن يصير عدواً ، أما ذاك فلا يكون إلا صديقاً حميما ومخلصاً أميناً وفياً »

غير أن شاور وهو يفكر فى هذا الغدر ، كان أمراء شيركوه يريدون الخلاص من شاور هذا ، ليأمنوا على أنفسهم من مكره وخداعه ، وهم لم ينسوا حاله معهم أولا وثانياً ، كما أن الخليفة الفاطمي أراد كذلك الخلاص من شر رجل كانت حياته على البلاد خطراً ووبالا ؛ وعلى هذا يصح القول بأن كل هذه الميول تآلفت فتضافرت وتناصرت على الفتك بشاور

فبينما هو ذات يوم في زيارة لشيركوه الذى كان قد غاب أو تظاهر بالغياب عن خبائه ليزور قبر الأمام الشافعي أو ليتروض على جسر النيل ، إذ قام صلاح الدين وبعض الأمراء الآخرين وركبوا مع الوزير شاور حتى أبعدوه عن رجاله ، ثم ألقوه عن الأرض وكبلوه ، وأرسلوا للخليفة فأبى إلا أن يُقطع رأسه ، ففعلوا وأرسل إليه ؛ وبهذا أسدل الستار على حياة هذا الرجل الذى جر مصائب كثيرة على الديار المصرية ، ويصح أن يكون

سبب انقراض الدولة الفاطمية

استدعى الخليفة العاضدُ لدين الله أسدَ الدين شيركوه ، فركب إليه ورأى من اجتماع الناس ما خاف منه على نفسه ، فقال لهم « الخليفة العاضد يأمركم بنهب دار شاور » فتفرق القوم إليها لنهبها ، أما هو فدخل القصر فلقيه العاضد وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش ، ثم أخرج له مرسوماً عليه بخط العاضد : « هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلا لحمله ، والحجة عليك عند الله فيما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة ، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » (صبح الاعشى)

خرج شيركوه من القصر إلى دار الوزارة ، وهى التي كان يقيم بها شاور ، فلم يجد فيها مقعداً يجلس عليه ، لأن الناس قد نهبوها عن آخرها . وبهذا استولى شيركوه على مصر هذه المرة دون أن يسفك فيها قطرة دم واحدة ، وكانت هي القاضية على آمال الأفرنج فى مصر

أخذ شيركوه يرتب أمور الدولة ، فوضع من يثق بهم فى الأعمال ، على أن أجله لم يمهله كثيراً ، ففارق الحياة يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة (٢٣ مارس سنة ١١٦٩ م) بعد أن مكث يدبر الأمور خلال هذه المدة القصيرة ، وصلاح الدين مباشر للأعمال مقرر لها ، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته وحسن رأيه

وسياسته كما يقول ابن شداد . ويقول ابن خلدون «ولما احتضر شيركوه أوصى طواشيه بهاء الدين قراقوش فقال له : الحمد لله الذى بلّغنا من هذه الديار ما أردنا وصار أهلها راضين عنا ، فلا تفارقوا سور القاهرة ، ولا تفرطوا فى الأسطول »

وفي موته يقول استيفن سن ما ترجمته : « إن الخدمات التى أداها عمل شيركوه للأسلام والمسلمين لجديرة بأن يكتبها التاريخ على صفحاته بأحرف من الذهب ، لأنه بعد عشرين سنة من توليته أمر مصر عادت مدينة القدس إلى أيدى المسلمين ، كما عاد كثير غيرها من البلاد التى كانت بيد الأفرنج ، ولأنه كذلك لم يستريح يوماً واحداً من الحروب ؛ ولقد كان ذا نظر بعيد فى الأمور ، يضع الخطط لنفسه فلا يغيرها ، بل ينفذها بكل جسارة وإقدام ، ولو مات قبل موته بستة أشهر لكان مصابه أليماً ورزؤه جسيما على نور الدين وأهله وبلاده ، ولكنه مات بعد أن أنهى ما علق فى عنقه وانقضت مهمته التى تطاول اليها فأدركها ، تاركا ثمرة جهاده وانتصاراته إلى ابن أخيه يوسف صلاح الدين الذى استحق بكل جدارة ، شرف الوراثة لهذا البطل الكبير »

وقد مدحه العماد بقصيدة منها :

بلغت بالجد مالا يبلغ البشر ... ونلت ماعجزت عن نيله القدر
أصبحت بالعدل والأقدام منفرداً ... فقل لنا أعلىّ أنت أم عمر
اسكندر ذكروا أخبار حكمته ... ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
يسرت فتح بلاد كان أيسرها ... لغير رأيك قفلا فتحه عسر